پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
(معهد العلوم الانسانية والدراسات الثقافية)

آفاق الحضارة الاسلامية

عددان في السّنة
العدد العاشر ـ السّنة الخامسة، ١٥ رجب ١٤٢٣ هـ. ق /
مهر ١٣٨١ هـ. ش. / أيلول ٢٠٠٢ م.

كتّاب العدد

الدكتور صادق آئينه‌وند
الدكتور مهدي گلشني
الدكتور يوسف خليفة أبوبكر
الأستاذ حيدر الهاشمي
الدكتورة شيرين عبدالنعيم حسنين
الدكتور صائب عبدالحميد
الدكتور علي يوسف نورالدين
السيد صدرالدين القبانچي
العلامة السيد مرتضى العسكري
آية‌الله الشيخ محمدعلي التسخيري
الدكتور سيدحسين ميرجليلي
محمد هادي الأسدي
الشيخ حسين علي المصطفى
الدكتور عبدالحسين فرزاد
الدكتور سيد خليل باستان
الأستاذ عبدالستار قري
الأستاذ قيس آل قيس

الحرب والسلم
في
فكر الإمام علي (ع)

الدكتور علي يوسف نورالدين
أستاذ في الجامعة اللبنانية
بيروت

أبوالحسن، علي بن أبي طالب (٢٣ هـق ـ ٤٠ هـ / ٦٠٠ ـ ٦٦١ م): شخصية متميزة في التاريخ الإسلامي: فهو وإن لم يبلغ النبوّة... فإنه لم يبق في منزلة البشر العاديين.. وذلك، بما أسبغ عليه الله عزّ وجلّ، من مزايا.. وبما أفاض عليه به الرسول الأكرم من روحه وعقله... وبما اشتملت عليه شخصيته من خصال لم تجتمع لأحد من بني البشر.. سوى الأنبياء.

فعن جابر قال: «دعا رسول الله (ص) عليّاً يوم الطائف فانتجاه، فقال الناس: لقد طال نجواه مع ابن عمه؛ فقال رسول الله (ص): ما انتجبته، ولكن الله انتجاه»، رواه الترمذي.[١]

وعن سهل بن سعد، أن الرسول (ص) قال يوم خيبر: «لأُعطينَّ هذه الراية رجلاً، يفتح الله على يديه، يحبُّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله.. فلمّا أصبح الناس غدوا على رسول الله (ص) كلّهم يرجون أن يُعطاها.. فقال: أين علي بن أبي طالب.. فأتى.. فأعطاه الراية..»[٢].

وعن حُبشي بن جنادة قال: قال رسول الله (ص): «عليّ منّي، وأنا من عليّ، ولا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو عليّ»[٣].

وعن سعد بن أبي وقّاص قال: قال رسول الله (ص) لعليّ: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنه لا نبيّ بعدي»[٤].

وعن زيد بن أرقم أن النبي (ص) قال: «من كنتُ مولاه، فعليٌّ مولاه»[٥].

وعن عليّ قال: «كانت لي منزلة من رسول الله (ص) لم تكن لأحد من الخلائق، آتية بأعلى سحر..»[٦].

هذا فضلاً عن مؤاخاة الرسول (ص) بينه وبين عليّ وقوله له: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»[٧]، وأحاديث أخرى كثيرة تؤيد علياً وترفع شأنه وتقوّي حجته.. مما لا مجال لذكرها الآن.[٨]

الإمام علي... والحرب

عُرف الإمام علي منذ صغره، بأنه خبير في شؤون الحرب، التي لا يرى فيها سوى جهاد في سبيل الله، دفاعاً عن الحق، ونشراً لهذا الدّين الحنيف، وهداية للناس وتوعيتهم، تمهيداً لبلوغ أرقى درجات الكمال.

وقد تجلّت عبقرية الإمام في هذا المجال عبر أمور كثيرة، منها:

١ ـ الشجاعة:

وهي رأس الأمور وأصل المسائل، بها يتم الامتثال للأوامر، والانتهاء عن الزواجر؛ وهي ضرورة وواجبة لاتخاذ القرار.. كما هي ضرورة وواجبة في الميدان، للإقدام والالتحام وتحقيق الانتصار. لذا كانت الشجاعة في الحروب القديمة ـ بل حتى في الحروب المعاصرة.. مع ما تشهده من تقدّم تكنولوجي ـ أمضى سلاح لدى الجيوش، لتحقيق أهدافها؛ وهي واجبة الوجود عند القادة أولاً، لأنهم القدوة لمرؤوسيهم من عناصر الجيش: بهم يتمثلون، ولأوامرهم يمتثلون؛ وقد قالت الحكماء: «أسدٌ يقودُ ألفَ ثعلب، خيرٌ من ثعلبٍ يقود ألفَ أسد»[٩].

وقد أورد ابن عبد ربّه في «العقد» أنّ بني فراس بن غُنم بن كنانه، كانوا من أشجع العرب

وأنجدهم و «كان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم. وفيهم يقول علي بن أبي طالب لأهل الكوفة: من فاز بكم، فقد فاز بالسهم الأخيب، أبدلكم الله بي، من هو شرٌّ لكم، وأبدلني بكم من هو خيرٌ منكم: وددتُ واللهِ، أن لي بجمعكم ـ وأنتم مائة ألف ـ ثلثماية من بني فراس بن غُنم» [١٠].

وهذا تأكيد على إدراك الإمام علي، خطورة هذه الصفة ودورها الفعال في إحراز النصر؛ وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وكم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله، واللهُ مع الصّابرين﴾ [١١].. وقوله تعالى: ﴿يا أيها النبيُّ حرّض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة، يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ [١٢].

ولم يكن الإمام علي ليطلب هذه الصفة من جُنده دون نفسه، وهو القائل: «مَن نصَّب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل غيره».. بل كان القدورة في هذا المجال، حتى ضُربت الأمثال بشجاعته، فأنسى ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتي بعده؛ وكفى في ذلك، أنه كان صاحب راية الرسول (ص) في المواقف كلّها (سوى تبوك)؛ وما ذاك، إلّا لأنه كان كرّاراً غير فرّار، قد امتحن الله قلبه بالإيمان، يضرب رقاب المشركين ويفتح الله على يديه.

وقد ظهرت شجاعة عليّ مذ كان صبياً، يطارد صبيان المشركين الذين كانوا يرمون الرسول (ص) بالحجارة والتراب.. فيمسك بهم ويقضمهم في آذانهم وأنوفهم.. حتى دُعي بالقضيم.. ثم في مبيته على فراش النبي (ص) ليلة الغار موطّناً نفسه على القتل، والعصبة من قريش محيطون بالدار ليفتكوا بمن في الفراش... ثم لما سار بالفواطم [١٣] بعد الهجرة جهاراً، من مكة إلى المدينة، فلحقه ثمانية من فرسان قريش، على رأسهم جناح، مولى حرب بن أمية الذي أهوى بالسيف وهو فارس، إلى علي وهو راجل، فحاد عليّ عن ضربته، وضربه بسيفه فقطعه نصفين وهرب بقية الفرسان.

وفي يوم بدر (٢ هـ)، قتل جماعة من صناديد المشركين، حتى رُوي أنه قتل نصف المقتلوين، وقتل باقي المسلمين مع الملائكة المسوّمين النصف الثاني.

وفي يوم أُحد (٣ هـ)، قتل أصحاب لواء المشركين جميعهم، وانهزم بقتلهم المشركون وكاد النصر يتم للمسلمين لولا مخالفة الرماة الرسول (ص).. وكان من بلاء عليّ في هذه

الموقعة واستماتته في الدفاع عن النبي، ما جعل المسلمين يسمعون صوتاً يردد في السماء: «لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي».

وفي وقعة الخندق (٥ هـ)، لم يجرأ أحد من المسلمين على مبارزة عمرو بن عبد ود، والنبي (ص) يقول: «مَن لعمرو وقد ضمنت له على الله الجنة»، فلم يقم إليه أحد، إلّا عليّ..

وفي يوم خيبر (٧ هـ)، أظهر عليّ من البطولة والشجاعة والقوة، حداً بلغ الخيال.. وكذلك شأنه في كل وقائعه.[١٤]

وطار المثل بضرباته الأسطورية، التي «إذا علا بها قدَّ، وإذا اعترض قطَّ...».

٢ ـ الرعب:

لم يكن «ذو الفقار» هو السيف الوحيد الذي يمتشقه الإمام علي في حروبه دفاعاً عن هذا الدين الحنيف، بل سلّ إلى جانبه سيفاً آخر لا يقل مضاءً عن «ذي الفقار»، إلّا أنه خفي عن العيون:

ذلك، أنه نتيجة لضروب البطولة والشجاعة التي أظهرها علي بن أبي طالب، والتي لم يعرف العرب لها نظيراً في حروبهم، دبّ الرعب في قلوب أعدائه.. حتى باتوا يخشون لقاءه.

وقد زاد من أثر هذا الرعب، وإرهاف حدّه، ما مَنَّ الله به على الإمام عليّ من ألوان التأييد الإلهي، سواء بصورة مباشرة على لسان الرسول (ص) أو بصورة غير مباشرة من خلال آيات قرآنية كثيرة.

ففي «صلح الحديبية» (٦ هـ) جاء مندوب قريش سهيل بن عمرو إلى النبي (ص) فقال: يا محمد، إنّ أرِقّاءنا لحقوا بك، فأرددهم علينا؛ فغضب رسول الله (ص) حتى تبيَّن الغضب في وجهه، ثم قال: «لَتَنْتُهُنَّ يا معشر قريش، أو لَيَبعثَنَّ الله عليكم رجلاً امتحن الله قلبه بالإيمان، يضرب رقابكم على الدّين». فقال بعض من حضر: يا رسول الله: فلان ذلك الرجل؟ قال: «لا»، قال: ففلان؟ قال: «لا، ولكنه خاصف النعل في الحجرة»؛ فسار الناس إلى الحجرة ينظرون من الرجل، فإذا هو علي عليه السلام[١٥]... ﴿إذْ يوحي ربُّكَ إلى الملائكةِ أنّي مَعَكُم، فثبّتوا الّذين آمنوا، سألقي في قلوب الّذين كفروا الرُّعب..﴾[١٦].

كذلك في غزوة بني قريظة (٥ هـ) فعندما رأى اليهودُ عليّاً يتقدم جيش النبي (ص)، قذف الله في قلوبهم الرعب، فالتجأوا إلى حصونهم حتى جهدهم الحصار واستسلموا، وأنزل الله فيهم قوله: ﴿وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صَيَاصِيهم وقذف في قلوبهم الرّعبَ، فريقاً تقتلون وتأسرون فَريقاً، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم يطؤوها، وكان الله على كلّ شيءٍ قديراً﴾ [١٧].

وقد ذكر ابن خلدون، أنّ أسباب النصر في المعارك ـ إلى الأسباب المادية ـ أسباباً خفيّة: «وهي إمّا من خِدَع البشر وحيلهم، في الأرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل... وإمّا أن تكون تلك الأسباب الخفيّة أموراً سماوية، لا قدرة للبشر على اكتسابها، تُلقى في القلوب، فيستولي الرهب عليهم لأجلها؛ فتختلّ مراكزهم، فتقع الهزيمة. وأكثر ما تقع هذه الهزائم عن هذه الأسباب الخفية، لكثرة ما يعتمل لكلّ واحد من الفريقين فيها، حرصاً على الغلب؛ فلابدّ من وقوع التأثير في ذلك، لأحدهما، ضرورة» [١٨].

وهذا ما أشار إليه الرسول (ص) بقوله: «نُصرتُ بالرُّعب مسيرة شهر»، «فكان الرعب في قلوبهم (الأعداء) سبباً للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلّها إلّا أنه خفي عن العيون» [١٩].

٣ ـ الصّيت والشهرة:

وقد جمع هذا العامل بين الشجاعة والرّعب؛ لأنه ينهل شجاعة، فيفيض رعباً.. وهو أحد العوامل التي جعلها ابن خلدون من الأسباب الخفية في إحراز النصر: «والسبب في ذلك، أن الشهرة والصّيت إنما هما بالأخبار؛ والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل، ويدخلها الأوهام... لخفائها بالتلبيس والتصنّع» [٢٠].

والصّيت والشهرة، ربما تناولا جماعة بأكملها.. أو شخصاً واحد بعينه.. تبعاً لمعطيات وظروف معتبرة، في حينها، لذاتها.

فمن الجماعات التي طار صيتها، وعمّت شهرتها الآفاق: «بنو فراس بن غُنم ابن كناته» المشار إليهم آنفاً؛ إذ «كان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم» [٢١] و «هوازن: وهم قوم رُماة، لا يكاد يسقط لهم سهم» [٢٢]... كذلك فقد شُهر عن «الموحدين» (في المغرب العربي)

أنهم لا يأسرون مشركاً محارباً إن ظفروا به، ولو كان ملكاً عظيماً، بل تضرب رقابهم، كثروا أو قلّوا»[٢٣].

غير أن أوّل من طارت شهرته في الإسلام، وصارت شجاعته وقوّته وفروسيته مضرب المثل بين الناس إلى يومنا هذا.. هو علي بن أبي طالب، قاتل بطل العرب عمرو بن عبد ود (في وقعة الخندق (٥ هـ)) وفاتح حصن خيبر وقاتل صاحبه مرحباً اليهودي (٧ هـ)[٢٤]... وهو الاسم الذي جلجلت الملائكة به في سماء «أُحد» (٣ هـ): «لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي»[٢٥].

وإذ بهذا الصوت يعبر الزمن، من مشرق الأرض إلى مغربها، لنجد صداه في الأندلس، وينشد شاعرهم:

إن تكن فارساً.. فكُن كعليٍّ ... أو تكن شاعراً فكن كابنِ هاني
كلُّ مِن يدَّعي ما ليس فيهِ ... كذَّبتهُ شواهدُ الامتحانِ

ولعلّ أفضل مثال نضربه حول أثر صيته (ع) في حياته، ما قاله الإمام علي في غزوة «بني قريظة» (٥ هـ): «سرتُ حتى دنوت من سورهم، فأشرفوا عليَّ، فلمّا رأوني صاح صائح منهم: قد جاءكم قاتل عمرو؛ وقال آخر: قد أقبل عليكم قاتل عمرو؛ وجعل بعضهم يصيح ببعض ويقولون ذلك، وألقى الله في قلوبهم الرعب حتى ركّزت الراية في أصل الحصن..»[٢٦].

كذلك في سرية «ذات السلاسل» (٩ هـ) فبعد أن أرسل الرسول (ص) ثلاثة من قادة المهاجرين (بينهم عمرو بن العاص)، إلى المشركين وعادوا مهزومين، سأل عن عليّ، فأرسله إليهم، فقال لهم عليّ: يا هؤلاء، أنا رسول الله إليكم، أن تقولوا لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، وإلّا ضربتكم بالسيف، فقالوا: انصرف عنّا كما انصرف ثلاثة، فإنك لا تقاومنا؛ فقال: إنني لا أنصرف؛ أنا عليّ بن أبي طالب؛ فاضطربوا...»[٢٧].

أما في سرية عليّ إلى أهل فدك (٦ هـ) فإنه قد غنم منهم أموالهم من دون أن تُراق قطرة دم واحدة.. لأنهم فرّوا جميعاً من معسكرهم، بمجرد سماعهم بمقدمه إليهم... ومثل هذا كثير.

٤ ـ شعر الحرب:

من خلال استعراضنا لتاريخ حروب العرب والمسلمين مع أعدائهم ـ وعلى امتداد العصور ـ نقف على عامل مهم من عوامل تحقيق النصر في تلك الوقائع؛ وهو عامل لم يعط ـ في رأينا ـ ما يستحقه من الاهتمام والدراسة؛ ألا وهو دور الشعر الجهادي، عملياً وميدانياً، وتأثيره على مجريات الأمور ووقائع الأحداث وساحات المعارك، إذ من الملاحظ، أنّ الجيش الإسلامي، لم يكن يحارب بسواعد رجاله، أو بما يملكه من أسلحة ومعدّات، أو بما هو عليه من تدريب عال وجهوزية دائمة، وانضباط تام.. أو بما هو مشبع به من عقيدة عظيمة، يجد نفسه معها على أهبة الاستعداد للتضحية في سبيلها بكل غال ونفيس... أو بما يكتنفه من مؤثرات نفسية أخرى متنوعة... وحسب[٢٨]... بل كان يحارب أيضاً بذلك الجيش الرديف الخفيّ، المتفجر في صدور المجاهدين براكين هادرة، من الإقدام والحميّة والاندفاع.. هذا الجيش، المتمثل بتلك القصائد الحماسية العصماء، التي كانت تسري في أوساط الجيش والشعب على السواء، سريان النار في الهشيم، تحثهم على صدق المواجهة، وتثير في جوانحهم حميّة الإسلام وعزّته، وتدفعهم لنصرة إخوانهم في الدّين، في كل مكان... في إطار من التعبئة النفسية الدائمة، التي نراها اليوم من خلال الموسيقى الوطنية والعسكرية والأناشيد الجهادية.

وانطلاقاً من هذا المبدأ، لا نرى عجباً، إذا وجد الشعر طريقاً إلى لسان الإمام علي... ومكاناً له في حروبه:

ففي وقعة الخندق (٥ هـ) راح عمرو بن عبد ود يصول ويجول حول المسلمين وهو ينادي: من مبارز؟ فقام علي وقال: أنا له يا نبيّ الله، قال: إجلس، إنه عمرو.. ثم كرر عمرو النداء، وجعل يوبّخ المسلمين ويقول: أين جنّتكم التي تزعمون أنه من قُتل منكم دخلها؛ أفلا يبرزنّ إليَّ رجل؟ ثم قال:

ولقد بُحِحتُ من النِدا ... ءِ بجمعِكم هل من مُبارز
إني كذلكَ لم أزل ... متسرعاً نحو الهزاهز

إنّ الشـــجاعة في الفـــتى والجـودُ مـن خـير الغـرائـز

فقام إليه علي بعد أن أذِن له الرسول في «الثالثة»، وهو يقول:

لا تـــعجلنَّ فـــقد أتـــا كَ مجيبُ صوتِكَ غير عـاجز
ذو نـــــيةٍ وبـــصيرةٍ والصـدقُ مـنجَى كـل فـائز
أني لأرجـــو أن أُقِـــيـ ـــمَ عـليكَ نـائحةَ الجـنائز
مـــن ضربـــةٍ نجـلاءَ يَـبْـ ـــقى صـيتُها بـعد الهـزاهـز

وما هي إلّا صولة، خاطفة... حتى خَرَّ على إثرها عمرو صريعاً؛ وما إن رأى من كان معه من صناديد قريش ما حلَّ بعمرو، حتى ولّوا هاربين، فرجع عليّ إلى مقامه الأو وهو يقول:

أعليّ تقتحمُ الفوارس هكـذا عنّي وعنهم خبَّروا أصـحابي
اليوم تمنعني الفـرار حـفيظتي ومصمم في الرأس ليس بنابي
أرديتُ عمراً إذ طـغى بمـهنَّدٍ صافي الحديد مجرّبٍ قـصَّابِ
فصدرتُ حين تركتُه متجدّلاً كالجذع بين دكـادكٍ وروابي
وعففتُ عن أثوابِـه ولو أنـني كـنتُ المـقطّر بـزَّني أثـوابي

أما في وقعة خيبر (٧ هـ) فقد خرج «مَرحب» من الحصن وهو يقول:

قد علمتْ خيبرُ أني مـرحبُ شاكي السلاح بـطل مجـرّبُ
أطعنُ أحياناً وحـيناً أضربُ إذا اللـيوثُ أقـبلتْ تـلتهبُ

فبرز له عليّ وهو يقول:

أنا الذي سمَّتني أُمّـي حـيدره أُكيلُكُم بالسيف كَيْلَ السندرة
ليثٌ بغاباتٍ، شديدٌ، قِسْوِره

القيادة الرشيدة:

ومن أبرز سِماتها:

١ ـ التدبير الحكيم:

كان الإمام علي، من أبعد الناس بصيرة، وأصحهم تدبيراً: سواء في ما كان ينهض له بنفسه، أو في ما كان يشير به على الآخرين:

ففي السرايا التي كان يقودها بنفسه، كان يحرص على السريّة التامة في تحركاته، وكأنه كان يعمل بالحديث الشريف: «واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

ومن ذلك، أنه كان يسير الليل ويكمن في النهار، ليخفي أمر تحركه على العدو؛ بل إنه في أحيان كثيرة، كان يُظهر أنه ينوي التوجه إلى ناحية، ثم يقصد أخرى، تفويتاً للفرصة على العيون والمنافقين، الذين ربما كانوا في صفوف عسكرة، وتعتبر سرية «ذات السلاسل» نموذجاً جيداً لاستقرار سلوكه العسكري وبعض خططه الحربية.[٢٩]

وكان من حسن تدبيره الحربي، أنه ما كان ليذهب إلى حرب قط، من دون الإعداد لها بشكل كاف، انطلاقاً من:

ـ الإعداد النفسي:

بما أنّ الدّين، كان العامل الأهمّ ـ إن لم يكن الأوحد ـ الذي أسهم في توحيد العرب[٣٠]... ثم المسلمين، بعد أن جرى في عقولهم ووجدانهم وأفئدتهم مجرى الروح من الجسد، فآنسوا ـ من خلاله ـ في أنفسهم القوة والمنعة، وتزوّدوا من مبادئه وتعاليمه بأقوى سلاح يشدّ أزرهم، ويقوّي عزيمتهم... لينطلقوا بعد ذلك من صحرائهم، إلى أمم الأرض، وقد تجلببوا الإيمان، وتدرّعوا العقيدة، رافعين راية الدعوة والجهاد، يقاتلون في سبيل الله صفاً واحداً، كالبنيان المرصوص.. بعد أن كانوا من قبلُ قبائل شتى، يغزو بعضها بعضاً...

وبما أن الجهاد كان الفريضة الأهم، التي ثُبّتت بها قواعد الإسلام، واستقرت بثبوتها شرائع الملّة؛ فقد شغلت هذه الفريضة من نفس الإمام علي حيّزاً كبيراً، وملكت عليه روحه وحياته، حتى عاش ومات مجاهداً، فكان سيد المجاهدين.

وبما أن هذه الفريضة، هي على الدوام، فعل عقيدة والتزام، قبل أن تكون فعل ممارسة،

فقد حرص الإمام عليّ، على أن يعيش المسلمون هذه الفريضة، بكامل أحاسيسهم ومشاعرهم، من خلال خُطبه الكثيرة فيهم، في هذا المجال، والتي يشرح فيها معنى الجهاد، ويظهر فضله، وأجره عند الله، وضرورته لحماية هذا الدين؛ ثم يبيّن عاقبة التخلّف عنه، وما يترتب على ذلك من ذلّ وهوان.

وهو في كل خطبه في هذا المجال، يرتقي بأفهام المسلمين وعقولهم شيئاً فشيئاً، حتى يأخذ بمجامع قلوبهم، ثم يوصيهم بأن «عَضّوا على الجهاد بنواجذكم»[٣١]... ثم يضع كلاً منهم أمام مسؤوليته، في صراع نفسي عظيم قائلاً:

«اللّهمّ، أيّما عبد من عبادك سمع مقالتنا، العادلة غير الجائرة، والمُصلحة غير المفسدة، في الدّين والدنيا، فأبى بعد سمعه لها إلّا النكوص عن نصرتك، والإبطاء عن إعزاز دينك، فإنّا نستشهدك عليه يا أكبر الشاهدين شهادة، ونستشهد عليه جميع ما أسكنته أرضك وسماواتك؛ ثم، أنت بعد، المُغني عن نصره، والآخذ له بذنبه»[٣٢]... ﴿**وفَضَّل اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً**﴾[٣٣].

ـ الدعاء إلى الله قبل لقاء العدو:

اقتفى الإمام عليّ، سُنّة النبيّ الأكرم (ص) في استحباب الدعاء إلى الله بالنصر عند لقاء العدو[٣٤]: ذلك أن المسلمين في بداية أمرهم، كانوا قلّة في العدد والعدّة، وهم مع قلّتهم، استطاعوا أن يهزموا كل القوى التي وقفت في وجههم، إذ «أنّ الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة»[٣٥]. وهو ما سبق أن ذهب إليه الإمام علي، عندما استشاره عمر بن الخطاب، في الشخوص لقتال الفرس بنفسه إذ قال له: «... والعرب اليوم، وإن كانوا قليلاً، فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع».

من هنا، كان اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، في الأوقات العصيبة، حصناً نفسياً ركيناً، وفعل ممارسة يومية، بل لحظويّة، لا ينقطع أبداً... يستشعرون من خلال اللجوء إليه عزّ وجلّ، الراحة النفسية والطمأنينة والقوة، انطلاقاً من إيمانهم الراسخ بأنّ ما يقومون به من فعل جهادي، إنما هو في سبيل الله.. فالله هو المبتدى والمنتهى، وكلّ عمل جهادي إنما هو

في سبيله ﴿ليُحقَّ الحقَّ ويُبطلَ الباطل﴾ [٣٦]، وجنوده في ذلك إنما هم المؤمنون حقاً ﴿الّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم، وإذا تُليَت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً، وعلى ربّهم يتوكّلون﴾ [٣٧]... وبالتالي، فعلى الله نصرهم تبعاً لقوله تعالى: ﴿يا أيها الّذين آمنوا، إن تنصروا الله ينصرُكُم ويثبّت أقدامكُم﴾ [٣٨].

بل لقد جعل الله سبحانه، نصرهم، حقاً عليه، فقال: ﴿وكان علينا حقّاً نَصرُ المؤمنين﴾ [٣٩].. ثمّ أكد الله ذلك بقوله: ﴿وليَنصُرَنَّ اللهُ مَن ينصرُه، إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيز﴾ [٤٠].

وهذا ما أكده الإمام علي في معرض ردّه على عمر أيضاً ـ وقد هال هذا الأخير كثرة الفُرس وقلة العرب ـ إذ قال علي: «وأمّا ما ذكرت من عددهم، فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنّما كنّا نقاتل بالنصر، والمعونة».

وكان عليّ قد قال لعمر ـ وقد استشاره في غزو الروم ـ: «وقد توكّل الله لأهل هذا الدّين بإعزاز الحوزة، وستر العورة؛ والذي نصرهم وهم قليل لا ينتصرون، ومنعهم وهم قليل لا يمتنعون، حيّ لا يموت» [٤١].

وهكذا، كان الإمام علي، يوصي أصحابه بإخلاص الدعاء إلى الله، في كلّ موقف من مواقفهم القتالية، ليستمدوا من آيات النصر، ذخيرة نفسية، تشحذ عزائمهم، وتثبّت أفئدتهم، ﴿قل ما يعبأ بكم ربّي لولا دعاؤكم..﴾ [٤٢].

ومما كان يقوله عليه السلام، إذا لقي العدوّ، محارباً:

«اللّهمّ إليك أفضت القلوب، ومُدّت الأعناق، وشخصت الأبصار، ونُقلت الأقدام، وانضيت الأبدان..» [٤٣].

ـ التحريض على القتال:

واقتفاءً لسنّة النبي (ص)، كان الإمام عليّ قبيل المعركة، يقوم في أصحابه مقام الواعظ، فيقوّي من عزيمتهم، ويحرّضهم على القتال، ويدعوهم للصبر، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿يا أيّها النبيّ حَرّض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين،

وإن يكن منكم مائة يغلبوا الفاً مِنَ الّذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهون ﴾ [٤٤]... ثم يحذّرهم من عاقبة الفشل والفرار، عملاً بقوله تعالى: ﴿ يا أيها الّذين آمنوا إذا لقيتم الّذين كفروا زحفاً فلا تولُّوهم الأدبارَ، ومَن يولِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ إلّا مُتحرّفاً لقتالٍ، أو متحيّزاً إلى فئة، فقد باءَ بغضَبٍ من الله ومأواه جهنّم وبئسَ المصير ﴾ [٤٥].

ومن حثّه عليه السلام لأصحابه عند الحرب:

«لا تشتدّنّ عليكم فرّة بعدها كرّة، ولا جولة بعدها حملة؛ واعطوا السيوف حقوقها، ووطّئوا للجُنوب مصارعها، واذمروا أنفسكم على الطعن الدّعسيّ [٤٦]، والضّرب الطّلحفيّ [٤٧]؛ وأميتوا الأصوات، فإنه أطرد للفشل: فوَالّذي فلق الحبّة، وبرأ النّسمة، ما أسلموا، ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر، فلمّا وجدوا أعواناً عليه، أظهروه» [٤٨]... «وأيّ امرئ منكم أحسّ منكم نفسه رباطة جأش عند اللقاء، ورأى من أحد من إخوانه فشلاً، فليذبّ عن أخيه بفضل نجدته التي فُضّل بها عليه، كما يذبّ عن نفسه؛ فلو شاء الله لجعله مثله، إنّ الموت طالب حثيث، لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب. إنّ أكرم الموت القتل؛ والذي نفس ابن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسّيف، أهون عليَّ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله» [٤٩].

ـ وصاياه لأمراء جيشه:

وكما ظهر حسن تدبير الإمام علي، ودقّة تنظيمه، في الأمور التي باشرها بنفسه، كذلك ظهر الأمر عينه في وصاياه لأمراء جيشه، من حيث إطاعة أُولي الأمر منهم وعدم تفرّقهم.. ثم وضع الخطط لهم في ساحات المعارك، تلافياً لأي خطأ. وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿ يا أيها الّذين آمنوا، إذا لقيتم فئةً فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً لعلّكم تُفلِحون، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبُ ريحُكم، واصبروا، إنّ الله مع الصابرين ﴾ [٥٠]، فمن كتاب له عليه السلام إلى أميرين من امراء جيشه:

«وقد أمّرت عليكما، وعلى من في حيّزكما، مالك بن الحارث الأشتر، فاسمعا له وأطيعا، واجعلاه درعاً ومجنّاً، فإنّه ممّن لا يخاف وهنه، ولا سقطته، ولا بطؤه عمّا الإسراع إليه أحزم،

ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل»[٥١]... «فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم، فليكن معسكركم في قُبل الأشراف[٥٢]، أو سفاح الجبال، أو أثناء الأنهار[٥٣]، كيما يكون لكم ردءاً، ودونكم مردّاً. ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واجعلوا لكم رُقباء في صياصي الجبال[٥٤]، ومناكب الهضاب، لئلّا يأتيكم العدوّ من مكان مخافة، أو أمن. واعلموا أنّ مقدّمة القوم عيونهم، وعيون المقدّمة طلائعهم؛ وإيّاكم والتفرّق: فإذا نزلتم فأنزلوا جميعاً، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً، وإذا غشيكم الليل، فاجعلوا الرماح كفّة[٥٥]، ولا تذوقوا النوم إلّا غراراً، أو مضمضة[٥٦]...»[٥٧]، «... فقدِّموا الدارع، وأخِّروا الحاسر، وعَضُّوا على الأضراس، فإنه أنبى للسيوف عن الهام، والتووا في أطراف الرماح، فإنه أمور للأسنّة، وغُضّوا الأبصار فإنّه أربط للجأش، وأسكن للقلوب؛ وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل، ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلُّوها، ولا تجعلوها إلّا بأيدي شجعانكم... وأيم الله، لئن فررتم من سيف العاجلة، لا تسلموا من سيف الآخرة...»[٥٨].

ومن وصية الإمام عليّ لمعقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام: «اتّق الله الذي لابدّ لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، ولا تقاتلنّ إلّا من قاتلك، وسر البردين[٥٩]، وغور بالناس[٦٠] ورفّه في السير، ولا تسر أوّل الليل، فإنّ الله جعله سكناً، وقدّره مُقاماً لا ظعناً، فأرح فيه بدنك، وروّح ظهرك. فإذا وقفت حين ينبطح السحر، أو حين ينفجر الفجر، فسر على بركة الله[٦١]. فإذا لقيت العدوّ، فقف من أصحابك وسطاً، ولا تدن من القوم دُنوّ من يريد أن يُنشب الحرب، ولا تباعد عنهم تباعد من يهاب البأس، حتى يأتيك أمري، ولا يحملنّكم شنآنهم على قتالهم، قبل دعائهم والإعذار[٦٢] إليهم»[٦٣].

٢ ـ عدم مخالفة الكتاب والسنّة:

يرى المحلل للوقائع التي جرت بين الإمام علي وأعدائه، أنّ علياً لم يعتمد في حروبه، إلّا ما وافق الكتاب والسنّة، وطرح ما سوى ذلك، مما قد يفتقد إلى المعايير والأصول الأخلاقية للجهاد؛ لأن الغاية من هذه الحروب هداية الناس إلى دين الله، ورفع الظلم عن البشر، حتى يعيش الجميع بأمن وسلام.. وبالتالي ليست الحرب من أجل الحرب، أو لاستعمار الآخرين واستعبادهم؛ وهذا يظهر جلياً من خلال وصايا عليّ لأصحابه ـ جرياً

على السنّة النبويّة ـ فيقول: «.. فإذا كانت الهزيمة ـ بإذن الله ـ فلا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا معوراً[٦٤] ولا تُجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذىً، وإن شتمن أعراضكم، وسبين أمراءكم...»[٦٥].

وقد روى أبو أُمامة: «أنّه شهد «صفّين» (٣٧ هـ)، فلم ير جريحاً يُقتَل، ولا مولىً يُقتَل، ولا قتيلاً يُسلَب»[٦٦].

وسأل أحدهم عليّاً، عمّا هو فاعل بأهل «الجمل» (٣٦ هـ) فقال عليه السلام: «بالمَنّ، كما سار رسول الله صلّى الله عليه وآله في أهل مكة»[٦٧].

وعن أبي حمزة الثمالي قال: قلت لعليّ بن الحسين عليه السلام: إنّ عليّاً عليه السلام، سار في أهل القبلة بخلاف سيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله في أهل الشرك. قال: فغضب، ثم جلس، ثم قال: سار والله فيهم بسيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله يوم الفتح: إنّ علياً عليه السلام كتب إلى مالك ـ وهو على مقدمته في يوم البصرة ـ بأن لا يطعن في غير مُقبل، ولا يقتل مدبراً، ولا يُجهز على جريح، ومَن أغلق بابه، فهو آمن»[٦٨].

كما أنّ تقيّد الإمام عليّ بالسنّة، يظهر واضحاً من خلال التشديد على أمراء جيشه، بضرورة إعذار العدو وإنذاره ـ كما مرّ من خلال وصيته لمِعقل بن قيس الرياحي ـ قبل المباشرة بأي حرب.. بل الانتظار حتى يبدأ العدوّ بها، فتقوم عليه الحجة، ولا يُنسب المسلمون للغدر. وفي مثل هذا يقول الإمام عليّ لأصحابه: «لا تُقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإنّكم بحمد الله على حجّة، وتركككم إيّاهم حتى يبدؤوكم حجّة أخرى لكم عليهم..»[٦٩].

ثم ينهى الإمام علي، عن استخدام أية وسيلة قد تصيب الأبرياء في الطرف الآخر بأذى، ولو كان من خلالها يتحقق النصر، وبالأخص إلقاء السمّ على العدو؛ فعن علي عليه السلام: «إنّ النبي (ص) نهى أن يُلقى السمّ في بلاد المشركين».

معاملة الأسرى:

أما في معاملة الأسرى، فقد كان للإمام علي في رسول الله (ص)، في هذا الأمر أيضاً أسوة حسنة، إذ كثيراً ما كان النبي (ص) يمنّ على الأسرى بإطلاق سراحهم؛ وبالأخص إذا تمّ

أسرهم بعد الحرب ولم يكن هناك فداء؛ وروي أنه (ص) كان يطلق ما تبقّى من الأسرى عند حلول شهر رمضان[٧٠].. هذا فضلاً عن معاملتهم الحسنة مدّة أسرهم عملاً بالآيات القرآنية الكثيرة في هذا المجال.[٧١]

وكما منع الرسول (ص) الأسر عن أهل مكة، عند الفتح، وقال لهم قولته المشهورة: «إذهبوا فأنتم الطُلقاء»، كذلك منع الإمام عليّ الأسر عن أهل البصرة بعد موقعة «الجمل»؛ إذ قال له بعض أصحابه بعد المعركة: إقسم بيننا أهل البصرة، فنجعلهم رقيقاً؛ فقال: لا، فقالوا: كيف تحلّ لنا دماءهم وتحرّم علينا سبيهم؟ فقال عليه السلام: كيف يحلّ لكم ذرية ضعيفة في دار هجرة وإسلام؟ أما ما أجلبت به القوم في معسكرهم عليكم، فهو لكم مغنم؛ وأمّا ما وارت الدّور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله، ولا نصيب لكم في شيء منه»[٧٢].

٣ ـ حسن الرأى:

لم يكن الإمام عليّ ليبخل برأي يُسديه، أو نصيحة يعطيها لسائلها، إذا وجد في مصلحة للمسلمين، سواء كان في سدّة الحكم أو لم يكن.

فحين خرج أبو بكر بنفسه لقتال المرتدّين، أخذ عليّ بزمام ناقته، وقال: «أقولُ لك ما قال لك رسول الله (ص) يوم أُحد: شم سيفك، ولا تفجعنّا بنفسك، وارجع إلى المدينة»[٧٣]... فرجع.

وحين استشاره عمر بن الخطّاب في الخروج إلى غزو الروم، نصحه بعدم الخروج، بل يبعث إليهم رجلاً مجرّباً ومعه أهل البلاء والنصيحة، «فإن أظهر الله، فذاك ما تحبّ، وإن تكن الأخرى، كنت ردءاً للناس، ومثابة للمسلمين»[٧٤].

كذلك، فعندما استشاره عمر في الخروج لقتال الفرس بنفسه وتجييش أهل الأمصار إليهم ـ وقد هاله ما سمعه عن كثرتهم ـ نصحه عليّ بالبقاء في المدينة، وإبقاء أهل الشام وأهل اليمن في بلدانهم خوفاً من هجوم الروم والحبشة على تلك البلدان وقد فرغت من الرجال. وكان الرأي الأمثل، الاستعانة بثلث أهل البصرة، ليكونوا مدداً للجيش. ثم قال له: «إنّ الأعاجم إن نظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب، فإذا اقتطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك، وطمعهم فيك... وأما ما ذكرت من عددهم، فإنّا لم نكن نقاتل فيما

مضى بالكثرة، وإنّما كنّا نقاتل بالنصر والمعونة»[٧٥].

كما أنّ عليّاً هو الذي أشار على عمر بالخروج إلى بيت المقدس لاستلامها من أيدي المشركين، بعد أن تحصّنوا فيها، وأجابوا للصلح، بشرط قدوم الخليفة عليهم، لأنه في المسير إليهم «أخف وطأة على المسلمين في حصارهم بينهم»[٧٦].

كذلك، فقبل محاربة عليّ عليه السلام، للبغاة في «الجمل» و «صفّين»، لم تكن تعرف في الإسلام أحكام التعامل مع الفئة الباغية؛ ذلك أن أحكام التعامل مع المشركين تختلف تماماً عن أحكام التعامل مع البغاة، باعتبار هؤلاء، من المسلمين الخارجين على الإمام: فرغم أنهم يهدّدون كيان الدولة الإسلامية كلّه، إلّا أنهم قبولهم ـ ولو لفظاً ـ للإسلام، يغيّر الحكم عليهم، وخصوصاً في مجال الأسر؛ فهؤلاء البغاة يجوز قتالهم إلّا بشروط، لا مجال لذكرها الآن... ثم هم إن رجعوا إلى طاعة ووضعوا أسلحتهم، أو هزموا ولم ينحازوا إلى فئة مناوئة أخرى، لم يجز قتالهم، ولم يتعقّب الفارّ منهم، ولا يقتل أسيرهم، ويداوى الجرحى منهم. والعلماء يجمعون على ذلك... وعلى أنّ أحكام البغاة مأخوذة من سيرة الإمام عليّ.

الإمام علي.. والسّلم:

وكما أنّ للحرب قواعدها وأصولها وآلاتها وفنونها.. في الإسلام... كذلك للسّلم قواعده وأصوله ومواثيقه ومعاهداته...

غير أن المتتبّع لسيرة الرسول (ص)، يرى أنّ الأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم، إنما هو السّلم؛ أمّا الحرب فتحتاج إلى مجوّز شرعي، حتى لو كانت حرباً دفاعية ـ كالحرب مع البغاة ـ فهي محدودة بحدود رفع الظلم ودفع التجاوز على النظام ﴿حتى تفيءَ إلى أمر الله..﴾[٧٧].

فعن الإمام الصادق (ع): «إنّ الله عزّ وجلّ، بعث رسوله إلى الناس عشر سنين، فأبوا أن يقبلوا حتى أمره بالقتال...»[٧٨]، وقد سلك قبل هذا مسالك، منها:

١ ـ الدعوة: وأول ما بدأ به الرسول (ص) من أجل نشر رسالته بين الناس، تحقيقاً، بل تأسيساً للسلم الحقيقي، بين الدول، أو في المجتمع (السلم الأهلي، وأمن الفتن)، هو الدعوة إلى

الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والحجة القويّة البليغة، وذلك انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة، وجادِلهُم بالتي هي أحسن..﴾ [٧٩]... ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ [٨٠].

والرسول في بداية رسائله إلى قادة الدول المجاورة، يستخدم عبارات دقيقة، مدروسة تماماً، فيقول: «أما بعد.. فإني أدعوك بدعاية الإسلام؛ أسلم تسلَم، وأسلِم يؤتك الله أجره مرتين..» [٨١]. فهنا دعوة إلى الإسلام، وليس إنذاراً بالحرب... ثم «الحرب النفسية» (الوعد والوعيد) التي استخدمها الرسول (ص) في الدعوة إلى الإسلام، ما هي إلّا نوع من الحوافز والضغوط الخفيّة، لتكريس هذا السّلم وتأكيده.. وهؤلاء، فيما لو رفضوا الدعوة، لم يوجه إليهم النبي (ص) تهديداً مباشراً... بل حمّلهم ضغطاً نفسياً آخر للقبول، بأنّ عليهم إثم شعوبهم [٨٢]...

٢ ـ العهود والمواثيق: كما لجأ الرسول (ص) ـ من أجل السّلم ـ إلى إقامة الصلح، وعقد الهدنة، وإبرام المواثيق، عندما كان يرى أن الظروف تقتضي ذلك؛ فعقد هدنة مؤقتة مع المشركين، وهي التي عُرفت بصلح «الحديبيّة» (٦ هـ)؛ وعقد أماناً دائماً مع نصارى «نجران»، كما أبرم تحالفاً لتبادل النصرة مع من يرجى دعمه للمسلمين، كما في تحالف الرسول (ص) مع نعيم بن مسعود، باسم قبيلة أشجع (ولم يكونوا قد أسلموا بعد).

كل هذا، والنبي (ص) يشدّد على ضرورة احترام العهود والمواثيق، فلم ينقض عهداً، ولم يغدر بعدوّ، عملاً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الّذين آمنوا أوفُوا بالعقود﴾ [٨٣].. ﴿وأوفوا بعهدِ اللهِ إذا عاهدتم﴾ [٨٤].

٣ ـ الدعوة إلى الإسلام قبل القتال: كان النبي (ص) يدعو إلى تجنّب المواجهة قدر الإمكان، من خلال تكرار دعوة العدوّ إلى الإسلام... وكان يقول لأمير جيشه: «إذا لقيت عدوّك من المشركين، فأدعهم إلى ثلاث خصال «أو خلال»، فأيّتهنّ ما أجابوك فأقبل منهم، وكفّ عنهم، ثمّ ادعهم إلى الإسلام...» [٨٥].

وعندما أعطى (ص) الراية لعليّ يوم «خيبر»، قال علي: «يا رسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم

بما يجب عليهم من حقّ الله فيه؛ فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من أن يكون لك حُمر النّعم»[٨٦].

أي أن النبي (ص) كان دائماً يحاول تجنيب الناس ويلات الحرب، إذ أمكن تحقيق منطلق «الردع الإيجابي»، عملاً بقوله تعالى: ﴿**وأعِدّوا لهُم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهِبون به عدوّ اللهِ وعدوَّكم**﴾[٨٧].. فإذا توقّفنا قليلاً عند كمة «تُرهبون»، نلاحظ أنها للتخويف، والرَّدع أولاً... وليس للحرب.. حتى إذا لم يكن هناك مناص منها.. فالقوة جاهزة، والجيش مستعد.

وهذا ما اشتمله كلام الرسول (ص) إذ قال: «يا أيها الناس، لا تتمنّوا لقاء العدوّ، واسألوا الله العافية؛ فإذا لقيتموه، فاصبروا، واعلموا أنّ الجنّة تحت ظلال السيوف...»[٨٨].

الإمام عليّ.. على خطى الرسول (ص):

وفي هذا المجال أيضاً لم يحد الإمام عليّ عن خطى الرسول قيد أنملة، فهو يوصي جنوده قائلاً: «لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإنكم بحمد الله على حجّة، وتركككم إيّاهم حتى يبدؤوكم حجّة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله، فلا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا معوراً، ولا تجهزوا على جريح...»[٨٩].

وهو يخاطب أمير جيشه معقل بن قيس الرياحي قائلاً: «ولا يحملنّكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم»[٩٠].

حتى ولو وقعت الحرب، فإن الإمام عليّاً، لم يكن لييأس من إمكان إنهائها بما يرضي الله وتجنيب الناس ويلاتها: ففي حرب «صفّين» (٣٧ هـ) دعا عليّ معاوية ابن أبي سفيان إلى حصر الحرب بينهما بالمبارزة فقال لمعاوية: «وقد دعوت إلى الحرب، فدع الناس جانباً وأخرج إليّ، وأعفِ الفريقين من القتال، لتعلم أيّنا المرين على قلبه، والمغطّى على بصره...»[٩١].

عهد عليّ (ع) لابن الأشتر:

على أنّ أروع ما سجله الإمام علي في الدعوة إلى السلام، هو ما جاء في عهده إلى مالك

بن الحارث الأشتر، حين ولّاه مصر، فقال: «... ولا تدفعنّ صلحاً دعاك إليه عدوّك، ولله فيه رضى، فإنّ في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأمناً لبلادك؛ ولكن الحذر كلّ الحذر من عدوّك بعد صلحه، فإنّ العدوّ ربّما قارب ليتغفّل[٩٢]، فخذ بالحزم، واتّهم في ذلك حُسن الظنّ، وإن عقدت بينك وبين عدوّك عقدة، أو البسته منك ذمّة، فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنّة دون ما أعطيت؛ فإنه ليس من فرائض الله شيء، الناس أشدّ عليه اجتماعاً، مع تفرّق أهوائهم، وتشتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود؛ وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا[٩٣] من عواقب الغدر، فلا تغدرنّ بذمّتك، ولا تخيسنّ بعهدك، ولا تختلنّ[٩٤] عدوّك فإنه لا يجترئ على الله إلّا جاهل شقي[٩٥]؛ وقد جعل الله عهده وذمّته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحريماً يسكنون إلى منعته، ويستفيضون إلى جواره؛ فلا إدغال[٩٦] ولا مدالسة ولا خداع فيه. ولا تعقد عقداً تجوّز فيه العلل، ولا تعوّلنّ على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونّك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله، إلى طلب انفساخه بغير الحقّ، فإنّ صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفصل عاقبته، خير من غدر تخاف تبعته؛ وأن تحيط بك من الله فيه طلبة[٩٧]، لا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك...»[٩٨].

والإمام عليّ، كان يعيش هذا العهد ـ عندما كان خليفة ـ بكل جزئياته وحيثياته؛ بل قبل أن يصير خليفة. ومن ذلك، أنه هو الذي أشار على الخليفة عمر بن الخطّاب، بضرورة المسير إلى «بيت المقدس» (إيليا) عندما حاصرها المسلمون وأبدى أهلها ميلاً للصلح، شرط قدوم الخليفة إليهم، فذهب عمر، وأبرم معهم ما عُرف فيما بعد، بـ«العهدة العمريّة»؛ وكأنّ الإمام علياً في نصيحته لعمر بالذهاب، كان يستجيب لقوله: ﴿**يا أيها الّذين آمنوا ادخلوا في السّلمِ كافّة، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدوٌّ مُبين**﴾[٩٩].

الإمام علي والسّلم الأهلي:

وكما حرص الإمام علي، على تأمين سلامة الدولة، من الأخطار الخارجية، كذلك حرص على صلابة الموقف الداخلي، عبر ترسيخ السلم الأهلي، بوحدة الصف، وتأمين

العدالة الاجتماعية، والحياة الحرّة الكريمة، وحرية المعتقد، وأمن الفتن وضمان حقوق الإنسان... لا يخشى في الله لومة لائم.

ورغم غمطه حقّه بالخلافة بعد النبي (ص) تبعاً للآيات القرآنية، وللأحاديث النبوية الكثيرة التي تنصّ صراحة على ذلك[١٠٠] فإن الإمام علياً لم يتوانَ لحظة في مدّ يد المساعدة لأبي بكر وعمر وعثمان عندما كانوا يطلبون منه ذلك ـ وكثيراً ما كانوا يطلبون ـ حفاظاً على مصالح الأمة، وصوناً لوحدة المسلمين؛ بل كثيراً ما هبّ لرأب الصدع إذا ما أحدق الخطر بوحدة المسلمين.

دوره في إخماد الفتنة (زمن أبي بكر):

ففي أوائل خلافة أبي بكر، اعتزل عنه بعض الأنصار، فاغتمّ بعض القُرشيين (من المهاجرين) من ذلك، وتكلم خطباؤهم، فهجا عمرو بن العاص الأنصار، وهددهم أبو سفيان بالقتال.. فلما سمع علي بذلك، خرج مغضباً حتى دخل المسجد، وذكر الأنصار بخير، فسُرَّ الأنصار بهذا الموقف، وقالوا: «ما نبالي بقول من قال، مع حُسن قول علي»[١٠١].

وتأكيداً على توثيق اللحمة بين المسلمين ومحو الريبة من نفوسهم، فقد رعى عائلة أبي بكر بعد وفاة هذا الأخير، بالزواج من أرملته وتربية ابنه محمد في حجره، حتى شبّ، فكلفه أموراً عديدة في خلافته (ع) فيما بعد.

في خلافة عمر:

أما في خلافة عمر، فقد بلغ اعتماد الخليفة على الإمام عليّ، في جميع شؤون الدولة حداً بعيداً، لا يتسع المجال لذكره هنا... ويكفي أن ورد بعض أقوال عمر في فضل عليّ عليه، لندرك إسهامه (ع) في ترسيخ السلم الأهلي، ودوره في حسن تسيير شؤون الدولة ووحدة المسلمين ـ وهو خارج الحكم ـ فمن ذلك:

«لولا عليّ لهلك عمر» و «لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن»، و«أعوذ بالله أن أعيش في يوم لست فيه يا أبا الحسن» و «اللهم لا تنزل بي شديدة إلّا وأبوالحسن إلى جنبي» و «أقضانا علي»[١٠٢].

موقف عليّ خلال الفتنة بين عثمان ومعارضيه:

بعد ستة أعوام من خلافة عثمان، بدأت المعارضة له تظهر في كل أنحاء البلاد. فقام الإمام عليّ بواجبه، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحذّر عثمان من بعض الولاة الذين يقومون ببعض الأعمال ويوهمون الناس أنها بأمره.

وحينما اشتدّ الحصار على عثمان، أتى الإمام علي ومعه الحسن والحسين، إلى منزل عثمان، وبذلوا جهدهم للدفاع عنه، رغم أن عثمان كان قد ترك أموراً سبق أن أشار بها عليه الإمام علي، كان فيها صلاحه لو عمل بها.[١٠٣]

السلم الأهلي وخلافة عليّ:

وعندما آلت الخلافة إلى عليّ، كان أشد حرصاً على وحدة المسلمين ورصّ الصفوف، لتصدّع اللّحمة الاجتماعية في خلافة عثمان؛ فساق الجميع بالحق، وساوى بين المسلمين بالعطاء، ولم يذكر من سبقه من الخلفاء إلّا بخير، ولكنه اقتصر على بيان احقيته بالخلافة وسكوته عن هذا الحق، حفاظاً على وحدة المسلمين؛ ولعلّ حديث عمر لابن عباس، خير ما يؤكد ذلك ويبين مذهب الإمام علي في الحياة، إذ قال له: «إنّ علياً ابن عمّك لاحقّ الناس بها، ولكن قريشاً لا تحتمله، ولئن وليهم، ليأخذنّهم بمرّ الحقّ، لا يجدون عنده رخصة»[١٠٤]... ولعلّ هذا ما يفسّر لنا ما يُنسب للإمام علي من القول: «لم يترك لي الحقّ صاحباً».

ولعلّ حبّ عليّ للحقّ، وابتعاده عن الأساليب الملتوية في إدارة شؤون الحكم، جعلت كثيراً من المتضررين، يعمدون إلى إشعال الفتن في عهده لاقصائه عن سُدّة الخلافة، ونشر الفساد والظلم في الأرض، بتفريق شمل المسلمين، وإضعاف شوكتهم.

وهكذا قامت أكبر فتنتين عرفهما الإسلام.. في وجه الإمام علي،؛ وهما فتنة «الجمل» (٣٦ هـ) وفتنة «صُفّين» (٣٧ هـ)[١٠٥]، غير أنّ الله منّ على الإمام عليّ بنصره، وخاب أمل البغاة.. وزاد من خيبتهم تلك المعاملة الإنسانية السامية، التي عامل بها الإمام علي دعاة الفتنتين، حتى ذهب إلى القول: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحقّ فأخطأه،

كمن طلب الباطل فأدركه»[١٠٦].

ثم هو يحذّر من فتنة بني أمية ـ وقد قضى على الفتن السابقة ـ فيقول: «... أيها الناس، فإني فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيهبها، واشتدّ كلبُها، فاسألوني قبل أن تفقدوني... ألا وإنّ أخوف الفتن عندي عليكم، فتنة بني أمية، فإنّها فتنة عمياء مظلمة، عمّت خطّتها، وخصّت بليّتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عميَ عنها»..»[١٠٧].

وهكذا، فإن الإمام عليّاً، لا يكتفي بضرب المثال الصالح لرعيته، في كيفية التعامل مع من أساء ـ من أجل وحدة الصف ـ بل يوضح للآتي بعده، طريقه، من أجل تجنّب الانخراط في الفتن، أو أن يكون وقوداً لها..

وتكتمل صورة الإمام علي: المصلح الاجتماعي والإمام العادل، والحاكم الصالح، والحريص على كل صغيرة وكبيرة من مصالح الرعية، وشؤون الأمة... عبر ذلك الدستور القيّم، الذي تفتقر إلى مثله معظم الدول اليوم.. لبناء مجتمع متماسك، يحترم حقوق الإنسان، ويقدّس حريّة الفكر، ويصون حق الضعيف، ولا يبخس شأن القوي، ويشجع المرافق الاقتصادية، ويحارب الاحتكار، واستغلال المنصب لمآرب شخصية، ويغذّى الروح، وينمّي الجسد، ويرسم لكل إنسان حدوده، ويبيّن ما له وما عليه... إلى غير ذلك من التشريعات التي فيما لو طُبقت في أي زمان وأي مكان، لأوجدنا المجتمع الفاضل، بل الدولة الفاضلة... إنه عهد عليّ (ع) إلى مالك بن الحارث الأشتر عندما ولّاه مصر.. العهد الذي يحتاج إلى دراسة مطوّلة مستقلة، يظهر من خلالها كيف يبنى السلم الأهلي، بل كيف تبنى الدول.[١٠٨].

نعم، إنه عليّ: من رَبِيَ في حجر رسول الله (ص)، وتأدّب بآدابه، وتخلّق بأخلاقه، واهتدى بهداه، واقتدى به في أقواله وأفعاله، ولازمه طول حياته؛ وهو الذي يقول في خطبته المسماة بالقاصعة: «وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة: وضعني في حجره وأنا وليد، يضمّني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسّني جسده، ويشمّني عُرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه. وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة

في فعل... ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل إثر أُمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به؛ ولقد كان يجاوز في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة...».

وبعد هذا، هل يكون عجيباً إذا قال الرسول (ص): «عليّ منّي وأنا من عليّ»، و «أنا مدينة العلم وعليّ بابها»... و «يا عليّ؛ حربك حربي، وسلمُكَ سِلمي»؟ [١٠٩].

الهوامش

١. الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، ١٧٢١/٣، تخريج ناصرالدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩ م.
٢. صحيح مسلم، بشرح النووي ١٧٨/١٥، القاهرة، ١٣٤٩ هـ، ومشكاة المصابيح، ١٧١٩/٣.
٣. مشكاة المصابيح، ١٧٢٠/٣.
٤. مشكاة المصابيح، ١٧١٩/٣، وصحيح مسلم، ١٧٤/١٥، وابن أبي عاصم: «السُّنّة» ٥٦٥/٢، تخريج وتحقيق ناصرالدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٠ م.
٥. مشكاة المصابيح، ١٧٢٠/٣، و «السُّنّة» ٥٦٥/٢.
٦. مشكاة المصابيح، ١٧٢٣/٣.
٧. مشكاة المصابيح، ١٧٢١/٣.
٨. صُنّفت في فضائل الإمام علي ومناقبه، التي اختصّ بها، وامتاز بها عن سائر الصحابة مؤلفات كثيرة، عدا ما أودع مضامين الكتب التي لا تحصى.
فمن الكتب: خصائص الإمام علي للنسائي (طبع مراراً)؛ وخصائص الإمام علي، للحافظ أبي نعيم الأصفهاني، وخصائص الإمام علي، لأبي عبدالرحمن السكري، وكتاب ما نزل فيه من القرآن، للحافظ أبي نعيم الأصفهاني.. الخ.
ومما حوته بطون الكتب، ما أورده ابن الأثير الجزري صاحب «التاريخ» في كتابه «أسد الغابة في معرفة الصحابة» (ط مصر): «روى يزيد بن هارون عن فطر عن أبي الطفيل؛ قال بعض أصحاب النبي (ص): لقد كان لعليّ من السوابق، ما لو أنّ سابقة منها بين الخلائق، لَوَسِعَتْهُم خيراً.
وأورد الحاكم النيسابوري في «المستدرك» بسنده عن ابن عباس قال: «لعليّ أربعة خصال ليست لأحد: هو أول عربي وأعجمي صلّى مع رسول الله (ص)، وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف، وهو الذي صبر معه يوم المهراس (أُحُد)، وهو الذي غسّله وأدخله قبره».
كما أورد الحاكم في «المستدرك» بسنده، أن النبيّ (ص) قال: «لمُبارزةُ علي بن أبي طالب لِعَمرو بن عبد ودّ يوم الخندق، أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة» (إشارة إلى زوال الإسلام بسيف عمرو فيما لو لم يقتله عليّ). أنظر: السيد محسن الأمين، «أعيان الشيعة»، الجزء الثاني والثالث، دار التعارف، بيروت، ١٩٨٣.
٩. الطرطوشي، سراج الملوك، ٥٠٠، شركة رياض الريس، بيروت، ١٩٩٢ م.
١٠. ابن عبد ربه، العقد، ٨٣/١، تح. العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٥٣ م. وأنظر نهج البلاغة، ٦٧، تحقيق، صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٧ م.
١١. سورة البقرة، من الآية ٢٤٩.
١٢. سورة الأنفال، من الآية ٤٥.
١٣. هُنّ: فاطمة بنت رسول الله (ص)، وأمّه: فاطمة بنت أسد بن هاشم، وفاطمة بنت الزبير بن عبدالمطلب، وزاد بعضهم: فاطمة بنت حمزة بن عبدالمطلب.
١٤. أنظر: سيرة ابن هشام، ٣٨٧/٣، تح. محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت، لا.ت، والكاندهلوي، حياة الصحابة، ٥٦٤/١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٨ م.
١٥. من ذلك أن الرسول (ص) في سرية ذات السلاسل (٩ هـ)، دعا علياً فعقد له ثم قال: «أرسلته كرّاراً غير فرّار» ثم رفع يديه إلى السماء يدعو له وشيّعه إلى مسجد الأحزاب... وفي غزوة خيبر قول النبي (ص): «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كرّاراً غير فرّار، يفتح الله على يديه»..

وعن أم عطية قالت: «بعث رسول الله (ص) جيشاً فيهم علي؛ قالت: فسمعت رسول الله وهو رافعٌ يديه يقول: اللّهمّ لا تمتني حتى تريني عليّاً» (مشكاة المصابيح، ١٧٢٢/٣).

١٦. سورة الأنفال، من الآية ١٢، وأنظر سورة الأحزاب، الآيات ٢٥ و ٢٦ و ٢٧، وسورة الأنفال، الآيتان ١٧ و ١٨، وسورة آل عمران، الآيات ١٢٣ إلى ١٢٦.

١٧. سورة الأحزاب، الآيتان ٢٦ و ٢٧.

١٨. ابن خلدون، المقدمة، ٤٩٠، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

١٩. نفس المصدر، ٤٩١.

٢٠. نفس المصدر، ٤٩٢.

٢١. ابن عبد ربه، العقد، ٨٣/١، نهج البلاغة، ٦٧، ط الصالح.

٢٢. صحيح مسلم، ١١٨/١٢.

٢٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١١٣/٧، تح. احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.

٢٤. أنظر: سيرة ابن هشام، ٢٤١/٣، والكاندهلوي، حياة الصحابة، ٥٦٠/١.

٢٥. سيرة ابن هشام، ٥٢/٣، وتاريخ ابن الأثير، ٥٨/٢، المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٣٤٨ هـ.

٢٦. أعيان الشيعة، ٢٦٦/٢.

٢٧. نفس المصدر، ٢٨٦.

٢٨. أنظر في هذا المجال دراستنا: المؤثرات النفسية في حروب العرب والمسلمين، مجلة الفكر العربي، ١٥٥ ـ ١٧٨، العدد ٩٠، معهد الانماء العربي، بيروت، خريف ١٩٩٧ م، وكتابنا: نظم السلم والحرب في الإسلام، (تحت لطبع).

٢٩. أنظر: أعيان الشيعة، ٤١٢/٣.

٣٠. أنظر ما قاله ابن خلدون في هذا المجال، المقدمة، ٢٦٦ و ٢٧٨.

٣١. نهج البلاغة، ١٧٩ (ط.الصالح).

٣٢. نهج البلاغة، ٣٢٩، وأنظر في هذا المجال: نهج البلاغة، ٦٩ و ١٧٥ و ١٧٧ و ٣٥٨، وجمهرة الإسلام، ذات النثر والنظام، لمسلم بن محمود الشيزري (بتحقيقنا) فإن فيها خطبتين للإمام علي، لم تُعرفا من قبل، دار المنتخب العربي، بيروت (تحت الطبع).

٣٣. سورة النساء، من الآية ٩٥.

٣٤. كان الرسول (ص) يدعو عند لقاء العدو: «اللّهمّ اهزمهم وزلزلهم»، صحيح مسلم، ٤٧/١٢.

٣٥. ابن خلدون، المقدمة، ٢٧٩.

٣٦. سورة الأنفال، من الآية ٨.

٣٧. سورة الأنفال، من الآية ٢.

٣٨. سورة محمد، من الآية ٧.

٣٩. سورة الروم، من الآية ٤٧.

٤٠. سورة الروم، من الآية ٤٠.

٤١. نهج البلاغة، ١٩٣ و ٢٠٤، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿ولقد نصركُم اللهُ بِبدرٍ وأنتم أذلّةٌ...﴾ (سورة آل عمران، من الآية ١٢٣).

٤٢. سورة الفرقان، الآية ٧٧... وقبل لقاء العدو في صفّين خطب عليّ أصحابه، حتى انتهى الى القول: «... ألا إنكم لاقوا العدوّ غداً إن شاء الله، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا تلاوة القرآن، واسألوا الصبر والنصر، والقوهم بالجدّ والحزم، وكونوا صادقين..»، أنظر نهج البلاغة، ٢٤٥.

٤٣. نهج البلاغة، ٣٧٣.

٤٤. سورة الأنفال، الآية ٦٥.

٤٥. سورة الأنفال، الآيتان ١٥ و ١٦.

٤٦. الدعسي: من الدعس؛ أي الطعن الشديد.

٤٧. الطّلحفي (بكسر الطاء، وفتح اللّام): أشد الضرب.
٤٨. نهج البلاغة، ٣٧٤.
٤٩. نفس المصدر، ١٨٠.
٥٠. سورة الأنفال، الآيتان ٤٦ و ٤٧.
٥١. نهج البلاغة، ٣٧٢.
٥٢. في قُبل الأشراف: أي قدّام الأماكن العالية، والأشراف، جمع شرف.
٥٣. أثناء الأنهار: منعطفات الأنهار.
٥٤. صاصي الجبال: أعالي الجبال.
٥٥. كفّة: أي مثل كفّة الميزان: مستديرة، محيطة بكم.
٥٦. غِراراً ومضمضة: الغِرار (بكسر الكاف): النوم الخفيف؛ والمضمضة: أن ينام ثم يستيقظ ثم ينام، تشبيهاً بمضمضة الماء في الفم، يأخذه ثم يمجّه.
٥٧. نهج البلاغة، ٣٧١.
٥٨. نفس المصدر، ١٨٠.
٥٩. البَردان: وقت ابتراد الأرض والهواء من حرّ النهار؛ أي: الغداة والعشي.
٦٠. غوّر: اي أنزل بهم في الغائرة، وهي القائلة: وقت اشتداد الحر ظهراً.
٦١. كان الرسول إذا بعث سرية، دعا أميرها فاجلسه الى جانبه وأجلس أصحابه بين يديه، ثم قال «سيروا باسم الله وبالله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله...» (المجلسي، بحار الانوار ١٧٧/١٩، مؤسسة الوفاء، بيروت، والكليني، الكافي ٢٧/٥، طبعة ايران).
٦٢. الإعذار إليهم، تقديم ما يعذرون به في قتالهم.
٦٣. نهج البلاغة، ٣٧٢... وأنظر: أعيان الشيعة، ٣٧٦/٣، وأنظر ص ٩٧ منه أيضاً.
٦٤. المُعورُ: الذي أمكن من نفسه وعجز عن حمايتها؛ وأصله: أعورَ، أي أبدى عورته.
٦٥. نهج البلاغة، ٣٧٣.. وكان النبي (ص) إذا بعث سرية أوصى أمراءَها: «سيروا باسم الله... لا تُغلُّوا، ولا تُمثّلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صبيّاً، ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلّا أن تضطرّوا إليها، وأيّما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى رجل من المشركين، فهو جار حتى يسمع كلام الله: فإن تبعكم فأخوكم في الدّين، وإن أبى، فأبلغوه مأمنه، واستعينوا بالله عليه» («بحارالأنوار» ١٧٧/١٩)، وأنظر صحيح مسلم ٣٧/١٢.
٦٦. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٥٨/١١.
٦٧. الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، ٥٨/١١.
٦٨. وسائل الشيعة، ٥٥/١١، وبحارالأنوار، ٢١/٣٢.
٦٩. نهج البلاغة، ٣٧٣.
٧٠. وسائل الشيعة، ٢٢٩/٧.
٧١. أنظر: سورة (محمد)، الآية ٤ وسورة الانسان، الآية ٨، وسورة الأنفال، الآيتان ٦٧ و ٧٠.
٧٢. شرح ابن أبي الحديد، ٢٥٠/١.
٧٣. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٥٧.
٧٤. نهج البلاغة، ١٩٣.
٧٥. نهج البلاغة، ٢٠٣، وأنظر: أعيان الشيعة، ٣٤٩/٣.
٧٦. نجم الدين العسكري، علي والخلفاء، ١٣٣.
٧٧. سورة الحجرات، من الآية ٩.
٧٨. وسائل الشيعة، ٩/١١.
٧٩. سورة النمل، الآية ١٢٥.
٨٠. سورة النساء، الآية ٦٣.

٨١. من رسالة النبي (ص) إلى قيصر، عظيم الروم؛ أنظر: محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية، ١٠٩، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٥ م. وأنظر كتابنا: الدبلوماسية في الإسلام (تحت الطبع).
٨٢. في رسالة النبي (ص) إلى كسرى ملك الفرس: فإن أبيت، فعليك إثم المجوس، وإلى ملك الروم: فإن تولّيت فعليك إثم الأريسيين، وإلى ملك مصر: فعليك إثم القبط («الوثائق السياسية» ١٠٩ و ١٤٠).
٨٣. سورة المائدة، الآية ١.
٨٤. سورة النمل، الآية ٩١.
٨٥. صحيح مسلم، ٣٨/١٢.
٨٦. مشكاة المصابيح، ١٧١٩/٣، وأنظر أيضاً حديث النبي (ص) لعلي (ع) عندما بعثه إلى اليمن، وفيه: «... لئن يهدي الله عزّوجلّ على يديك رجلاً، خير لك مما طلعت عليه الشمس، وغربت، ولك ولاؤه يا عـليّ» (وسائل الشيعة ٣٠/١١) وأعيان الشيعة، ٢٨٧/٢.
٨٧. سورة الأنفال، الآية ٦٠.
٨٨. صحيح مسلم، ٨٦/١٢.
٨٩. نهج البلاغة، ٣٧٣، وأنظر أعيان الشيعة ٤٨٤/٣، وما بعدها.
٩٠. نفس المصدر، ٣٧٢.
٩١. نفس المصدر، ٣٧٠، وأنظر: أعيان الشيعة، ٤٦٥/٣، وما بعدها.
٩٢. إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ (سورة الأنفال الآية ٦٢).
٩٣. أي وجدوا عواقب الغدر وبيلة، مهلكة.
٩٤. التخل: الخداع.
٩٥. يقول تعالى: ﴿.. إلّا الّذين عاهدتم من المشركين، ثم لم ينقُصوكُم شيئاً، ولم يظاهروا عليكم أحداً، فأتمّوا إليهم عهدهم إلى مُدَّتِهم، إنّ الله يحبُّ المتقين﴾ (سورة التوبة، الآية ٤).
٩٦. الإدغال: الإفساد.
٩٧. أي تأخذك بجميع أطرافك مطالبة الله إيّاك بحقه في الوفاء الذي غدرت به.
٩٨. نهج البلاغة، ٤٤٢.
٩٩. سورة البقرة، الآية ٢٠٨.
١٠٠. من ذلك قوله تعالى: ﴿إنما وليُّكُم اللهُ ورسولهُ والذين آمنوا الذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ (سورة المائدة، الآية ٥)، وقول النبي (ص): «من كنت مولاه فعليّ مولاه...» و «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنه لا نبيّ بعدي...» و «أنت وليّ كل مؤمن بعدي...» و «من أطاع علياً فقد أطاعني ومن عصا علياً فقد عصاني...» و «هذا وليّي والمؤدّي عني...» وغيرها من الأحاديث، أنظر «أعيان الشيعة» ٣٣٥/٣ وما بعدها.
١٠١. تاريخ اليعقوبي، ١٢٨/٢، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢٣/٦.
١٠٢. أنظر «طبقات ابن سعد» ٣٣٩/٣، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ١٧١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨ هـ.
١٠٣. أنظر حسين الديابكري، تاريخ الخميس، ٢٦٣/٢، مؤسسة شعبان، بيروت.
١٠٤. تاريخ اليعقوبي، ١٥٩/٢.
١٠٥. أنظر: أعيان الشيعة، ٤٤٧/٣، وما بعدها.
١٠٦. نهج البلاغة، ٩٤.
١٠٧. نهج البلاغة، ١٣٨، وأنظر ص ١٠٢، فيما يكون من مروان بن الحكم وأولاده، من شرّ.
١٠٨. أنظر هذا العهد كاملاً في نهج البلاغة، ٤٢٦ ـ ٤٤٥.
١٠٩. مشكاة المصابيح، ١٧٢١/٣، وأنظر «أعيان الشيعة» ٣٣٥/٣ وما بعدها.

الأصالة والمعاصرة في نظرية أهل البيت (ع)

حجة الإسلام والمسلمين

السيد صدرالدين القبانچي

النجف الأشرف ـ العراق

تاريخ المسألة

لم تكن مسألة الأصالة والمعاصرة في الاجتهادات الفكرية والتشريعية في الإسلام مسألة حديثة الولادة بقطع النظر عن طبيعة العنوان والاصطلاح المتخذ للتعبير عنها.

إننا قد نجد بعض إفرازاتها في زمن الرسول الأكرم وما بعده مباشرة حينما ظهرت العديد من الاجتهادات الشخصية ربما في مقابل حكم الرسول وقوله (ص)، ولم تلبس تلك الاجتهادات الشخصية ثوب الرأى الذاتي وإنّما طُرحت على أساس الملائمة للواقع والانسجام معه وهذا هو ما يصطلح عليه اليوم بـ(العصرنة) أو (المعاصرة)، وقد سجل المؤرخون عشرات الموارد التي تمّ الخروج منها على الموقف الشرعي الذي جاء به القرآن أو السنّة بذريعة الملائمة للواقع وغير ذلك. وقد جمع العلّامة شرف الدين[1] مائة مورد لذلك في كتابه (النص والاجتهاد)[2] فراجع.

إنّ هذا اللون من الاجتهادات في قرارات ذات طابع سياسي أو تشريعي في مقابل حكم القرآن أو نص الرسول الأكرم (ص) ربما لم تكن ـ في مظهرها كما قد فسرها بعض ـ على أساس التنكر للأصالة ورفض الشرع، وإنّما طرحت على أساس حقّ التعديل والتصرف بحكم الشرع تبعاً لظروف الواقع المعاصر، بمعنى تقديم عنصر «المعاصرة» على عنصر